جنود في الظلام

قصة بقلم ربيع مبارك

ـ ميرد ، الور !

أطلقها عبـــاس بغضب ، وهو يضرب الارض الرطبة ، بحذائـــه العسكري الثقيل . وآمسك رأسه بين راحتيه ، ليقاوم الدوار الـذي عاد يتملكه . انه يقف عند اخر بيت ، في أقصى نقطة تصلها مدينـه أزرو الصغيرة ، وهي تتسلق الجبل . لقد عول على ان يشرف عـــلى المدينة من عل ، علّه يتبين أين يتجه ، وظن انه سيستمر التصعيد الى القمة الشماء ، كي يبلغ قصده . ولكن في هذه النقطة ، عند منتصف الجبل ، يتبين له كل شيء ، حسب ما يسمح به موقعه ، من منطقـة النور او الظـلام . فالمدينة تبدو منقسمة الى جزءين متباينين ، يشيع في أحدهما النور ، بينما يغرق الاخر في حالك الظلام ، ويفصلهما ... ماذا يفصلهما ؟ تذكر انه قد عبر جسرا خشبيا صغيرا . نعم انه متأكد من هذا ، وان كان لا يدري على التحقيق ، اذا ما كان هناك مـاء تحـت الجسر ، أم انه فقط ، صغير مؤقت لمد قنوات تحت الارض . وأكـد عباس لنفسه ، ان لو كان هناك ماء تحت الجسر ، لسمع خريره عـلى الاقل . فلقد عبر الجسر ثلاث مرات : الاولى قبيل الغروب ، عندمـا توقفت سيارات فرقتهم العسكرية ، في ساحة المدينة ، هنـــاك وراء الجسر . فعبره الى هذه المنطقة مع سائر جنود الفرقة . لكن الهـرج لم يكن ليترك له فرصة للاحظة شيء . ولكنه قد عاد ثانية يعبر الجسر وحيدا ، في الظلام ، عائدا الى الساحـــة المركزية ، حيث مقهـى المودموزيل ، ليجلب لرفاقه المنتظرين ، مزيدا من الخمر . لقد تركهـم ينتظرون في آحد البيوت : آربعة جنود كان خامسهم ، وخمس نساء . وعبر الجسر ثالثة ، وهو يعود بزجاجتين ، غرزهما بين حزامه وبطنه . لقد تحداهم جميعا : قالوا انه سكر ، وانه لا يستطيع آن يضبط نفسه في وقفة رزينة ، فوقف متجلدا ، لكنهم قالوا بأنه كان يتمـــايل ... ثم تحداهم ثانية عندما تراهنوا ، على عشرين درهما ، يكسبها مـن يستطيع آن يأتيهم بخمر ، يقضون بها الساعة الباقية على موعـــد ارتحالهم ، على آن يستغرق أقصر مدة ممكنة . قال أحدهم ، لعـــله كاترفانديس ، نعم هذا اسمه بالضبط ، رقمه ، قال انه يقوم بهذا فـي نصف ساعة . ثم تقدم اخر .. لعله ... لا . انه لا يذكر بالضبط ، ولا أهمية للاسم ، الرقم . وقال هذا الاخر انه ينجزه في ثلث ساعة . ثم تقدم هو ، عباس ، ليقوم بذلك في ربع الساعة . لم يكن من منافس، فصفقوا له ، وانطلق ... ترنح كثيرا ، وبعزيمة نادرة وجهاد ، تغلب على تخاذله ، واستطاع آن يجلب الخمر ، ويعود اليهم . ودلف الـى حيث تركهم ، مطمئنا الى كسب الرهان ، لكنه وجد وجوها آخرى لجنود اخرين ، رحبوا به وبما يحمل ، فخرج بسرعة . اذن فقد ضل الطريق. أين رفاقه ؟ وظل يدلف الى بيوت أخرى ، لترحب به وجوه أخرى ثم يخرج مسرعا ، والضحكات تتعالى خلفه . طرقات بلا نظام ، مصعـدة منحدرة . لقد كاد يسقط مرارا ، وقدماه تصطدمان بالاحجار الناتئة ، في قوة . وتصبب عرقه ، وهو يلهث مصعدا منحـــدرا ، دائرا ، دون جدوى . قدر انه سيخسر الرهان ، لم تبق الا دقائق ، وتنقضي المدة اللازمة . واشتد عليه الدوار . ثم صعد أخيرا نحو قمة الجبل ، حتى نهاية البيوت ، حيث أشرف على المدينة كلها ، وبدأ يعمل فكره ...

ـ ميرد !

عاوده الدوار من جديد ، فامسك رأسه براحتيه وراح يحدق في منطقة النور ، في الطرف الاقصى . تبين مقهى المدموزيل ... ثـــم الساحة الكبرى ... فالسيارات العسكرية التي نقلته مع باقي أفراد الفرقة ، انها لا تزال هناك ، ثابتة ... ثم من هناك سلك ذلك الشارع العريض المنحدر ، ثم الشارع الاخر ... صغير . نعم . فالطريـــق الضيق .. ثم الجســر ، ثم توا نحو منطقة الظلام ، ثم ... ظلام ولا شيء غير الظلام .

عاد يضرب الارض بحذائه ، ويلعن الدوار الملح . لو انه فقط ، فاز بلحظة مع احداهن . انهم الان هناك ، خمس نساء ، وآربعة جنود كان خامسهم . سيسعدون جميعا بهذه المرحلة ، الا هو . ليته ما تراهن ولا تحدى ، بل ليته كسب الرهان . ضاع الان كل شيء . بعـد نصف ساعة على الاكثر ، سيحشرون جميعا في السيارات الكبرى ، وتختلط حكاياتهم . فماذا يقول هو ؟ ماذا يقولون عنه ؟ سيكون مدار النكتة ، طيلة المرحلة . وفكر بأن يختلق كذبة . ولم لا ؟ حسنا ليدع بانه قضى الليلة عند المدموزيل ، آه ! هذه حقا رائعة ! مع المدموزيل الشقـراء اممم .. لو كان ذلك حقا . لكنهم لن يصدقوا . لا . لا . هذه ضخمة تثير الضحك والنكتة . حسنا ليتواضع ، ويفكر في حكاية آقل ضخامة. نعم . مع واحدة وكفى . وماذا في ذلك : التقى باحداهن ، ومكـث عندها طيلة مدة غيابه ؟ سيصفها . نعم . وله كل الوقت لاستحضـار ما يعشق فيها من صفات . وأحس عباس بالارتياح برهة ، الا انه مـا لبث آن تكدر : هناك الاخرون .. سيشهدون بأنه ضل الطريق ودلف الى بيوتهم خطأ . وهذا يكفي لاثارة النكتة . فاقتنع بانه لم يسعـد بهذه المرحلة كغيره . إن أزرو آمل كل جندي . وهذا ما ينغصه .

واستمر يقتلع قدميه منحدرا ، في تخاذل ، يجوس الازقة الملتوية المظلمة ، ويترنح بين الحين والاخر ، فيستند الى أحد البيـوت القصيرة المتراصة على الجانبين . وسمع لغطا على بعد خطوات منه ، أمامـه ، فتوقف ، وحدق جيدا في الظلام : شلة جنود تخرج من أحـد البيوت ، لم يتبين منهم الا جمرات ملتهبة في الظلام . انهم يدخنون في نشوة ، ويسرعون نحو السيارات . لقد سعدوا بالمرحلة ، آما هو ... وجذبتـه يد بقوة ، فانجذب ، ليجد نفسه داخل بيت ، أمامها ... امرأة ... نعم تتمسك به !

ـ ادخل .

ـ لم يبق وقت .. انصرفوا .

ـ لحظة ، ونلحق بهم .

ابتسمت ، فبدت أسنانها متلألئة بيضاء ، بين الشفتين الورديتين، على ضوء شمعة قريبة . هذه انثى من تلك التي كانت معه ، هناك . تلك كانت عجوزا ، وهذه صبية ما تزال . واقترب منها ففغمته رائحـة العطر ، يفوح من أطرافها المضمخة . رفعت اليه عينيها الواسعتيـــن فانمحى كل تردد في ذهنه . وانحنى يحل خيط حذائه ، فقاومت حركته زجاجتان بين بطنه وحزامـه . آنزلهما جانبا فبـــادرته دهشة وهي تتفحصهما :

ـ ممتلئتان ؟

لم يجب ، وانحنى من جديد يحل خيط حذائه ، بينما هي تحل

الفردة الثانية . لحظة مع هذه الفتنة ؟ ماذا تجدي لحظة ؟ لا بد من قضاء عمر معها . كان في انحناءته تلك ، وهي جالسة القرفصاء ، تحرر رجله من الحذاء الثقيل ، يرى قسماتها في لقطة طبيعية : القوسان الاسودان ، تحت الجبهة العريضة ، والارنبة الدقيقة ، والشفتان .. والليل البهيم فوق رأسها ... فتنة . ماذا تجدي لحظة مع هذه ؟ لا بد من قضاء عمر معها . جذبها الى جانبه وهو يجلس :

ـ أسقينا يا جميلة .

ـ سنتأخر كثيرا ، اذا شربت .

ـ التأخير عندنا واحد ، قل أو كثر . سأقضي الليلة هنا وليكن ما يكون ...

وتناهى اليه الهرج ، في الازقة الملتوية ، يمتزج فيه وقع الاحذية الثقيلة ، بالضحكات والنداءات ...

ـ صالو .. انهم يركضون نحو السيارات .

وبصق تجاههم . وخفت الهرج ، شيئا فشيئا ، ثم سمع عباس خطوات فردية ثقيلة ، تترنح في جريها ، ثم تصطدم بشيء فيسمع وقع كتلة على الارض ، ثم تعود الخطوات من جديد ... ففهقه عباس ملء شدقيه :

ـ ها ها ! لقد وقع على الارض ! صالو .. لا بأس عليك .. اجر.. اجر .. صالو !

وساد الصمت في الخارج . ولم يعد يسمع في الداخل الا خرير السائل القاني ، وهو ينصب من الزجاجتين الى الكاس.. والرشفات.. وقرقعة الزجاج . سيسعد اكثر منهم جميعا . الخمر والجمال والفراش الدافيء . بينما يقضون ليلهم ، في السيارات ، مربوطين كالرزم . انه يعرف ما ينتظره . لقد وقع ذلك لكثيرين غيره . وتراءى له « الكابورال شاف » بقامته القصيرة ، وهو يصرخ بالارقام ، والاجوبة تتتابع : « بريزان .. بريزان .. ثم كاترفاندوز .. أبسان ...» » .

فيضرب الكابورال الارض بقدمه مغيظا . وهو يبصق لفظة صالو . ثم يسلم أمرا بالقبض على عباس ، الى السلطة المحلية . وما أسرع ما ينتشر الدركيون والمقدمون ، كالكلاب الهائجة ، يتشممون ريحه ، ليذهبوا به الى السجن المحلي ، ومن هناك الى السجن المركزي . انه يعرف كل هذا جيدا ، ولا يهمه بعد ليلة كهذه ، أن يقاسي عذاب السجن . فليتمتع بليلة ما أمكنه .. وجذبها نحوه بعنف . لو انه لم يمكث هنا لكان الان معهم ، ينهشونه بألسنتهم القضبة : « ـ أين كنت يا بطل ؟!

ـ دعوه . فقد غاص رأسه بين كتفيه .

ـ لو رش الجير ، على طريقه ، لتعرف عليه عند الرجوع ..

ـ من أين له الجير ؟ كان الاولى أن يثبت على النجمة التي تسامت البيت ، فيتعرف عليه عند العودة بيسر .

ـ ربما لم تكن هناك نجوم ، خصوصا في ليلة مظلمة . أليس كذلك يا عباس ؟

ـ في هذه الحالة . كان عليه أن يضع مصباحا على سطح البيت يميزه من بعيد .

ـ اذن ، لاصطاد طائرة ! » .

وتتعالى حوله الضحكات . لا .. لقد نجا الان من كل ذلك . وهو بطل حقا ، رضوا أم كرهوا . والسجن لا يدخله الا الرجال حقا ، يكفي ان يفيظ المرء ذلك الكابورال القميء . ما أشد غطرسته . انه ليحنق عباسا بلهجته الآمرة . فما كادت السيارات تقف في مركز المدينة الصغيرة ، ويقفز الجنود الى الارض ، حتى صاح ، وهو يتطاول، على مقدم رجليه : « الرحيل : التاسعة بالضبط . الان السادسة الا عشرا . لا تأخير » . وتمنى عباس لو يرى ما يرتسم على وجه صاحبه ، عندما ينادي بصوته الآمر : كاترفاندوز ، فلا يجيبه أحد ، ثم يسجل في دفتره ، وهو يضرب الارض غيظا : « ابسان ... صالو » . لكن ماذا يقولون عنه الاخرون ، رفقاؤه الجنود ؟ ماذا يقولون الان ؟ ليتهم يرونه ، في مجلسه هذا . لن يصدقوه ، فيما بعد ، اذا ما حكى لهم مغامرته . سيدعون انه ، وهو في حالة سكر ، قد وقع في حفير ، أو قضى ليله يتجول في الجبل ، باحثا عن رفاقه ... آف ليتركهم ، وليستمتع بحاضره .

وعاد ينجرع الكؤوس ، ويرتشف من جمال غادته ...

وأوشكا أن يأويا الى الفراش ، حين فكر بأنهم قد يفسدون عليه ليلته . لقد وقع ذلك لغيره من قبل . عند أعمق غمضة ، يطرقون الباب للقبض عليه ، ويسوقونه شبه عار ، حيث يقضي ليلة مثلجة ، ثم ينقل الى السجن العسكري . وأحس بضيق . لا مهرب اذن . والمدينة الصغيرة ، بل حي الظلام محدود . وسيفتشونه ركنا ركنا . وما من أحد يخفي آمر جندي هارب . والتفت اليها فجأة :

ـ اسمعي . هذه عشرة دراهم اضافية ، على ألا تفتحي لاحد .

ـ لن أفتح . وتناولت منه الورقة المالية ..

وعول عباس على مقاومة النوم الذي أوشك أن يتسلل الى عينيه . النوم فيما بعد . وهذه فرصة نادرة . هات النكتة واشرب .. تزود للغد . غدهم . وعش يومك . وسمع طرقا على الباب . أرهف سمعه فعاد الطرق من جديد . هم بلا شك . نفخ على الشمعة فساد الظلام . وعاد الطرق أشد عنفا ..

ـ سأفتح .

ـ كلا . انهم يبحثون عني .

وتتابع الطرق . فتمسك عباس بالمرأة ، وهي تهم بالنهوض :

ـ لن تفتحي .

ـ اذن يخلعون الباب . ويكون الوضع أخطر .

واشتد الطرق . فتراخت مقاومته . لا مهرب اذن . ونهضت هي تفتح الباب ، وبقي هو في الفراش ينتظر ، مرهفا اذنيه . سمعها تقول :

ـ التتمة على الصفحة ٧٩ ـ

شعر

من منشورات دار الاداب

		ق. ل
● الاعاصير	للشاعر القروي	٣٥٠
● وجدتها	لفدوى طوقان	٣٠٠
● وحدي مع الايام	» »	٣٠٠
● اعطنا حبا	» »	٢٥٠
● ابيات ريفية	لعبد الباسط الصوفي	٣٠٠
● في شمسي دوار	لفواز عيد	٢٠٠
● الفجر آت يا عراق	لهلال ناجي	٢٠٠
● المشانق والسلام	لعدنان الراوي	٢٠٠
● حداء وغناء	لخالد الشواف	٢٠٠
● عاشق من افريقيا	لمحمد الفيتوري	٢٠٠
● احلام الفارس القديم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
● اقول لكم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
● فلسطين في القلب	لمعين بسيسو	٢٠٠
● كلمات فلسطينية	لحسن النجمي	٢٠٠
● بيادر الجوع	للدكتور خليل حاوي	٣٠٠
● سفر الفقر والثورة	لعبد الوهاب البياتي	٢٥٠
● الناس في بلادي (ط. جديدة)	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠

جنود في الظلام

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٣٢ ـ

ـ من ؟

ـ افتحي يا عائشة .

وسمع حركة الباب وهو ينفتح . لقد دخلوا . وتناهى اليه حديث يدور باللهجة البربرية ، التي لا يحسنها . ظل جامدا يترقب ، وعيناه تحدقان في الظلام ، تجاه الباب . ثم احس بخطوات تتقدم نحو البيت . واشعلت عائشة الشمعة ، فبدا خلفها رجل ملتح ، على راسه عمامة ، ويلتف ببرنوس أسود . انه المقدم ولا شك . وتلاقت نظرات الرجلين ، فابتسم صاحب البرنوس ، وهو يمد يده الى عباس. ومد عباس يده ايضا ، دون ان يرد على ابتسامة صاحبه ، وسرعان ما استرد يده ، بعد المصافحة القصيرة ، يعيد بها وضع الغطاء الذي انحسر عن صدره العاري . اذن فقد وقع كل شيء باسرع مما قدر . لن ينعم بدفء الليلة . ولن تتاح لراسه المثقل فرصة الوسادة . واجتاحه شعور بالضيم . آلا استريح ؟! وعيناه تحدقان في الظلام ، بعد ان خرج الرجل ، وتبعته عائشة بالشمعة . وتساءل لم يتداولون في أمره ؟ ولم يبتسم ، صاحب البرنوس ؟.. وفزع قلبه ، وقام عن لا وعي ، يؤدي التحية العسكرية ، شبه عار ، احدى يديه تتشبث بالغطاء الساقط ، والاخرى وراء حاجبه ، وصوت قوي يعرفه جيدا ، يجلجل فوق راسه ، وضربة حذاء ثقيل :

ـ كاترفاندوز .. انت في حالة فرار من الخدمة .

همهم عباس بكلام غير مفهوم ، وعيناه الى الارض ، يعاني حرج الموقف . كان الكابورال يملأ الباب ، وخلفه عائشة ممسكة بالشمعة ، لا ينفذ من نورها الى الداخل ، الا ما تجاوز قامة الكابورال القصيرة . وكانما انتبه الكابورال لاول مرة ، الى وضع عباس غير المريح ، فردد النظر بينه وبين عائشة ، وهو يهمهم في صوت اقل حدة :

ـ راحة . البس بسرعة . انا منتظرك . صالو !

وتراجع خارج البيت وهو يبصق . بينما اعادت المراة الشمعة وخرجت ، دون ان تنظر الى عباس ، الذي طارت سكرته . فانهمك في ارتداء لباسه بحركات متنافرة . وما لبث الكابورال ان عاد يصرخ :

ـ اخرج كما انت بسرعة .

وتناول عباس فردتي الحذاء باحدى يديه ، والاخرى ما تزال تعالج حزامه . وخرج الى صحن الدار ، حيث المقدم ينتظر ، والتفت خلفه باحثا عن عائشة ، ليملأ منها نظره ، حين راى الكابورال ينزع من بين حزامه وبطنه شيئا ، يضعه جانبا مع قبعته ، وينحني على حذائه يفك خيوطه ، والمراة تساعده . شده عباس وتراجع خطوة ، ثم توقف وقال وكانما لا يريد ان يسمعه أحد :

ـ احم .. احم .. مون كابورال ...

فالتقط سمعه صوت الكابورال يقول في هدوء وكانه يحدث نفسه او يجيب المراة ، التي تحرر يسراه من الحذاء :

ـ لا .. سآخذ عطلة ليوم ونصف .

وسرعان ما انتبه الى وجود عباس ، فاستعاد لهجة يعرفها هذا جيدا :

ـ كاترفاندوز . سلم نفسك للمقدم . هذا امر .

واحس عباس بيد تقوده ، بينما سبقتها المراة الى الباب تفتحه . وحين حاذاها ، على العتبة ، لمست كتفه بتودد . لم يشك لحظة في انها تاسف عليه ، وتتالم من اجله . احس بانه يجب ان يقول شيئا ، ففتح فاه ، وعيناه لا تريان شيئا ، في دنيا الظلام الحالك أمامه :

ـ انا غير متالم .. انما هو ...

همست له ضاحكة ، ويدها تداعب شحمة اذنه :

ـ أوه . لا تنزعج عليه . لن يخرج في الظلام .

الدار البيضاء (المغرب) **ربيع مبارك**

زوروا مكتبة السلام

السودان ـ حلفا الجديدة ص. ب ٢٣

جميع الكتب وادوات المدارس ومطبوعات دار الآداب

في السوق :

الناس والحب

مجموعة قصصية جديدة

تاليف

محمد ابو المعاطي ابو النجا

منشورات دار الاداب